



الوصل والهجر في كتاب "طوق الحمامة في الألف والالاف" لابن حزم الأندلسي

د/ شيماء إسماعيل محمد مرسى

مدرس بقسم الدراسات الأدبية

كلية دار العلوم، جامعة القاهرة

shaimaaismaeel@yahoo.com

 10.21608/jfpsu.2025.371765.1427

تاريخ الإرسال : ٢٠٢٤/٣/٢٧ م تاريخ القبول : ٢٠٢٥/٥/١٨ م

تاريخ النشر : ٢٠٢٥/٥/٢٣ م

This is an open access article licensed under the terms of
the Creative Commons Attribution International License
(CC BY 4.0). <http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>



الوصل والهجر في كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي

مستخلص:

يدرس هذا البحث الوصل والهجر لدى ابن حزم الأندلسي في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاف) باعتباره واحداً من أهم كتب التراث الأندلسي التي عُيّنت بالعلاقة بين المتحابين، وتهدف الدراسة لتأمل جماليات أنماط الوصل والهجر لديه، وبيان التوازن بين الجانب النظري والتطبيقي، الشعر والنثر، الفكر والشعور، وتعتمد الدراسة لتأمل الأحوال النفسية للمتحابين من منظور ابن حزم وبيان أثر ذلك على العلاقة بين العاشقين في ثنائيتي الوصل والهجر والإقبال والإدبار للحضور والغياب، كما يهتم البحث بدراسة لغة الأديب وأسلوبه وتأمل طرائق التعبير الأدبي لديه الأمر الذي جعل كتابه بمثابة تحفة أدبية عالمية تتوارثها الأجيال.

فابن حزم ذلك المحدث المتكلم الفقيه الشاعر الفيلسوف يطرح رؤيته الفكرية بحس أدبي بارع، تفرد البحث في انتقاء نقطة تماس بين الوصل والهجر مكمّنها أحوال المتحابين التي نظم أحوالهم شعرا ونثرا.

وقد انتقيت المنهج الفني في هذه الدراسة باعتباره الأوفق في استبطان جماليات النصوص وبيان عناصر الانسجام بين كافة عناصرها لغة وأسلوباً وصورة وفكراً وشعوراً.

الكلمات المفتاحية: الوصل والهجر، ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، الألفة والألاف.

Connection and Abandonment in the Poetry of Ibn Hazm al-Andalusi

Abstract:

This research examines union and abandonment in the work of Ibn Hazm al-Andalusi in his book (The Ring of the Dove: Intimacy and Love), considered one of the most important books in the Andalusian heritage that dealt with the relationship between lovers. The study aims to reflect on the aesthetics of his patterns of union and abandonment and to demonstrate the balance between theoretical and practical aspects, poetry and prose, and thought and feeling. The study intends to examine the psychological states of lovers from Ibn Hazm's perspective and to demonstrate the impact of this on the relationship between lovers in the dualities of union and abandonment, acceptance and rejection, and presence and absence. The research also focuses on studying the author's language and style and contemplating his methods of literary expression, which have made his book a global literary masterpiece passed down through generations.

Ibn Hazm, the modern theologian, jurist, poet, and philosopher, presents his intellectual vision with a brilliant literary flair. The research is unique in its selection of a point of contact between union and abandonment, which lies within the conditions of lovers, whose circumstances he articulated in both poetry and prose. I chose the artistic approach in this study as it is the most appropriate for exploring the aesthetics of the texts and demonstrating the elements of harmony between all their elements: language, style, imagery, thought, and emotion.

Keywords: Connection and Abandonment, Ibn Hazm al-Andalusi, The Ring of the Dove, Intimacy and Companions.

مقدمة:

في تأملة لأحوال المتحابين نلمح تماوج علاقاتهم بين وصل وهجر، جل وترحال، غياب وحضور، ينبت الوصل أزاهير الحياة وبهيجها في قلوبهم، ويشعل الهجر نيران الألم واليأس، وتسري الدنيا دائما على دربها المعهود في انبتات عهود المحبين أو مفارقة الخلآن؛ إذ التغيير سنة كونية تسري نواميسها على النفس والكون والحياة، ومن ثنائيتي الوصل والهجر اهتديت لانتقاء موضوع هذا البحث.

أسباب اختياري لموضوع هذا البحث:

- وقد اخترت موضوع هذا البحث للأسباب الآتية:
- القيمة الأدبية لكتاب "طوق الحمامة"؛ إذ يُعد من ذخائر الثقافة العربية والإسلامية التي غُنت بموضوع الحب والألفة والألاف.
 - تميز وتفرد فكر ابن حزم الأندلسي، فهو الفقيه العالم المتكلم الأديب ذو الحس التأملّي والتفكير الفلسفي.
 - أن فكرة الوصل والهجر تشغل فكر المتحابين على مر الأزمنة، وهذا بدوره يلفت نظر الناقد والدارس لتأمل عميق لهذه التقلبات النفسية والعاطفية التي تعتريهم؛ فالوصل والهجر هما نتاج مشاعر إنسانية لتقلب أحوال المتحابين عبر كل زمان ومكان.
 - رغم تنوع الدراسات عن كتاب طوق الحمامة فلم أجد بحثا يتناول موضوع الوصل والهجر في هذا الكتاب؛ لذلك أردت إثراء المكتبة الأدبية بفكرة هذا البحث.

الدراسات السابقة:

- حظي كتاب "طوق الحمامة" بالعديد من الدراسات الثرية المتنوعة، أذكر من بينها:
- سيميائية العنوان في "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي.^(١)
 - صورة المرأة بين طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي ومصارع العشاق لابن السراج القارئ، دراسة موازنة^(٢)

(١) خالد سريان ساري الحربي، سيميائية العنوان في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، جامعة الأزهر، حولية كلية اللغة العربية بنين بجرنا، المجلد السادس والعشرون، ٢٠٢٢م، الجزء الأول، إصدار ديسمير

(٢) منال رشاد حسين عبد الجواد، صورة المرأة بين طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي ومصارع العشاق لابن سراج القارئ، "دراسة موازنة"، جامعة الفيوم، مجلة كلية الآداب، مجلد ١٤، عدد ١ (يناير) ٢٠٢٢م

- صورة المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي^(١)
- الصمت في أخبار العشاق: تجلياته، وظائفه، ودلالاته " طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي أنموذجاً^(٢)
- الرؤية الفنية في كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي^(٣)
- خطاب الحب في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي^(٤)
- وظيفة خطاب المقدمات في كتب الحب العربي (طوق الحمامة)، و(مصارع العشاق)، أنموذجاً^(٥)

وجه الاستفادة من الدراسات السابقة:

أفدت كثيرا من الدراسات السابقة لكتاب طوق الحمامة لابن حزم، من حيث تنوع الرؤية وزوايا الدراسة، ومناهجها المختلفة، والاطلاع على فكر الباحثين وطرائق التعبير اللغوي لديهم، كما أفدت كذلك من الإحالات المرجعية التي أشارت إليها هذه الدراسات.

وجه الاختلاف بين بحثي هذا والدراسات السابقة:

يختلف هذا البحث عن غيره من الدراسات التي تناولت كتاب "طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي في جدة الموضوع؛ حيث تعد هذه -فيما أعلم- الدراسة الأولى لموضوع الوصل والهجر في كتاب طوق الحمامة.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة لدراسة أنماط الوصل والهجر لدى ابن حزم في كتابه طوق الحمامة، وبيان مدى التوازن بين التنظير والتطبيق، النثر والشعر، الفكر والعاطفة، وتأمل ملامح الرؤية الإبداعية في تجارب الوصل والهجر.

(١) هلا عبد الحميد العلي، صورة المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، مجلة جامعة البعث، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مجلد ٤٢، عدد ١٦، ٢٠٢٠م

(٢) ريم زرويق، الصمت في أخبار العشاق: تجلياته، وظائفه، ودلالاته " طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي أنموذجاً، أعمال الندوة الفكرية:الصمت في الخطاب، جمعية الدراسات الأدبية والحضارية بمدنين، تونس، ٢٠١٨م

(٣) بسام عبد الوهاب الحوامدة، لطفي أحمد بابكر، الرؤية الفنية في كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية التربية، السودان، ٢٠١٨م

(٤) المنصف شعرانة، خطاب الحب في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، جامعة القيروان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، عدد ١٤، أكتوبر، ٢٠٢٢م

(٥) عبدالله حسن محمد القرني (دكتور)، وظيفة خطاب المقدمات في كتب الحب العربي، (طوق الحمامة) و(مصارع العشاق) أنموذجاً، جامعة ببشة، مجلة البحوث والدراسات العلمية، المجلد ١٧، عدد ١ (٢٠٢٣) م

منهج الدراسة:

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الفني للكشف عن جماليات التعبير عن الوصل والهجر في فكر ابن حزم الأندلسي شعرا ونثرا.

تمهيد:**نبذة عن المؤلف والكتاب:**

هذا علّم فذ عُرفَ بثقافته المتنوعة و تفرد آرائه واجتهاداته الفقهية " فإنه المنطقي والجدلي والمتكلم والفقيه والمؤرخ، والشاعر، وعالم النفس... وسع علمه كل فنون المعرفة في عصره، وخلف وراءه ثمانين ألف ورقة من شعره ونثره " (١) بما فيهم من رؤى وأفكار ومعتقدات فريدة، وهو " أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بمدينة قرطبة، في آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ هجرية من أسرة غنية عريقة النسب كان أهلها ذوي مجد وحسب، وعلم وأدب " (٢).

والمؤلف الذي تدور حوله هذه الدراسة هو كتاب " طوق الحمامة في الألفة والألاف " لابن حزم الأندلسي باهتمام الباحثين على اختلاف توجهاتهم وثقافتهم وزاوايا رؤيتهم نظرا لما يشتمله من رؤية تمثل الفكر العربي والإسلامي للحب؛ " فطوق الحمامة كناية عن استلهاهم الجمال الذي هو مثار الحب " (٣)، فابن حزم يمزج مزجا فريدا بين القيم الجمالية والمشاعر الإنسانية بلغة يمتزج فيها روح المتأمل وعقلية الفقيه ونفسية الأديب المبدع.

والمتأمل لعنوان الكتاب يلمح العديد من الدلالات التي يتسع التأويل لها جميعا؛ إذ الطوق بالنسبة لعنق الحمامة رمزا يُجمله وليس قيّدا يحجم حريته؛ إذ يبقى الطير حرا، فالطوق بالنسبة للحمامة كالفكر بالنسبة للمشاعر، يُرصعها ويميزها، ويمزج ابن حزم في عنوان كتابه هذا " طوق الحمامة في الألفة والألاف " بين قيم الجمال النفسي والفني، " وكأنني بآبن حزم يقول: هذا كتاب يتحدث عن العلاقة السرية بين الجمال والحب أو هذا الكتاب بين الكتب كطوق الحمامة بالنسبة للحمامة " (٤)، فانتقاء العنوان فيه تمييز لهذا

(١) زكريا إبراهيم (دكتور)، ابن حزم الأندلسي، المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت، ص ٣

(٢) السابق، ص ٣٠

(٣) إحسان عباس، مقدمة رسائل ابن حزم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ط٢، (٣٧/١)

(٤) السابق، نفسه

المؤلف وما يشمله من قيم وأفكار وأنماط نفسية تعكس أحوال المتحابين، وبشكل عام "العنوان حامل معنى وحمل وجوه، موازٍ دلالي للنص، وعتبة قرائية مقابلة له، توجه المتلقي نحو فحو الرسالة ومضمونها" ^(١)، فيبقى في تيقظ دائم ومتابعة المضامين والمعاني. أما فكرة هذا البحث فتركز على تجربة الوصل والهجر بين المتحابين، والنفس الإنسانية دائماً ما يتركز صراعها بين موجود ومفقود وحضور وغياب ووصل ووهجر، غير أن كتابة ابن حزم في الحب بما يعتريه من متناقضات تميزت بكونها كتابة الفيلسوف وعالم النفس الذي يؤثر الاستقصاء والبحث، ويعتمد الملاحظة والاستقراء ^(٢)، فيعرض الفكرة عرضاً عميقاً متتبعا كافة المعاني والمشاعر.

ويُنْبُتُ المحب من حبات المودة والوصل عناقيد الوثام؛ فبالوصل تسكن النفس وتصفو الروح؛ فالوصل بين المتحابين يضيف على نفسيهما وهجا وبريقا، كما أن رياح الهجر تنزع عنهما وهج الحياة وبهيج الأمان، فينحبس الشدو وتضرب شجيرات الأوهام جذورها في أعماق الوجدان، وتتوزع أحوال المتحابين بين صفو وتكدير، وجل وترحال، ووصل وهجران، وبين هذه المشاعر الممتزجة تنمو المشاعر وتضطرع النفس بين أمل وألم، والناقد يتأمل ذلك كله فيما يعرف بالتذوق الجمالي للنص "ومن التذوق الجمالي تنشأ الأفكار وتتباين الثقافات التي تطبع كل حضارة في الحضارات بطابع مميز" ^(٣)، فتكون لكل حضارة بصمتها وتقردها.

وإذا كان الشاعر ينسج شعر الوصل والهجر لأسباب فنية أو نفسية فإن المتلقي يتأمل تلك التجارب لقراءة البعد الدلالي والجمالي فيها محاولاً أن يسبر أغوار النفس وخباياها العميقة. وفيما يتعلق بالوصل بين المتحابين فإنه يخلق الانسجام في النص والنفس، ويمنح النفس لذة، فالطاقة الروحية التي تبثها مشاعر الوصل في بنية النص تنتقل من خلال اللغة والصور والتراكيب للمتلقي، فتنتقل له صورة مما طبع في وجدان العاشقين "ومن لذيق

(١) محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط ١١، ٢٠١١م، ص ١٩

(٢) انظر: عبد الكريم خليفة، ابن حزم الأندلسي، دار العربية للنشر، بيروت، د. ت، ص ١٩٦

(٣) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٨٢

معاني الوصل المواعيد، وإن للوعد المنتظر مكانا لطيفا من شغاف القلب^(١)، والنفس طبعتها تتوق لذلك المنتظر البعيد ويأخذها الشغف لمعرفة تفاصيله وبين النص والنفس نغمة تترنم بترانيم الحياة، ونبضة تنبض بالشوق إلى اللقاء، وينفث ابن حزم هذه المعاني في الدفقة الشعورية الآتية^(٢):

أَسَامِرُ الْبَدْرِ لَمَّا أَبْطَأْتُ وَأَرَى فِي نَوْرِهِ مِنْ سَنَا إِشْرَاقِهَا عَرَضًا

فَبِتُّ مُشْتَرِطًا وَالْوُدُّ مُخْتَلَطًا وَالْوَصْلُ مُنْبَسِطًا وَالْهَجْرُ مَنْقَبِضًا

فإذا تأملنا معجم الألفاظ في البيتين السالفين نجدها نابضة بدلالات الرقة؛ إذ توحى بنية الفعل (أسامر) بالمؤانسة، وتكسب بنية المضارعة دلالة الرغبة في صلة دائبة (أسامر، وأرى)، فحضور المحبوبة نور دائم وظلالها سنا وضياء، ووهج لقائها إشراق وضياء، فينبسط ما كان منقبضا وينقبض ما كان منبسطا، وتختفي الظلمات وتبرز هالات النور فتكامل سحب النص بصورة دفاقة وألفاظ براقية مغلقة بظلال اللين، وتتفجر في النص العديد من المعاني المتواترة المتقابلة فإبطاء مقابل إهراع ووصل يقابله هجر، يُقصي الشاعر شعورا ويُدني آخر.

وقد وفق ابن حزم فنيا في توظيف الألفاظ والأفعال المتسقة دلاليا مع مشاعر الوصل، فتعانقت معا وهو يطلي عليها من فرحته وابتهاجه بوعده محبوبته^(٣)؛ إذ الوصل أمل في الري وسقيا الإحساس، وبهذا الأمل في اللقاء يسكب ابن حزم من ترانيم روحه على بنية البيت الثاني ذلك التناغم الموسيقي بين المقاطع الصوتية، محاولا إحداث الموازنة بين الداخل والخارج، ترنيم النص وترنيم النفس.

ومن الوصل ما يكون خلصة، وبعض الاختلاس في النظر للمحبيب يزيد لذة العشق ويروي العاشق، تماما كما يختلس الطفل سقيا أو طعاما في غفلة عمن حوله، فتتضاعف لذة

(١) الإمام علي بن حزم الأندلسي، المتوفى ٤٥٦ هجريا، طوق الحمامة في الألفة والألاف، مؤسسة هندواي، ٢٠١٤ م، ص ٨٢

(٢) السابق، نفسه

(٣) الجامعة العراقية، كلية الآداب، مجلد ١٤، عدد ٣٥، ٢٠٢٤ م ص ٥٦٢ منال عبد الحي إبراهيم، أنماط الوصل في غزل شعراء الطوائف والمرباطين،

الأخذ؛ إذ تكمن المتعة حينئذ في اختلاس غير مرئي، فبعض براءة الحب تكمن في طفولته وبرأته، يمثل ذلك مايلي:

جَرَى الحُبُّ مِنِّي مَجْرَى النَّفْسِ وَأَعْطَيْتُ عَيْنِي عَنَانَ الْفَرَسِ

وَلِي سَيِّدٌ لَمْ يَزَلْ نَافِرًا وَرَيْثَمَا جَادَ لِي فِي الْخَلَسِ^(١)

يفتح ابن حزم البيت الأول بما يجذب انتباه المتلقي؛ إذ " تتجلى جمالية أسلوب التصريح في براءة حسن الاستهلال التي تضيفي على البيت الأول مسحة جمالية " ^(٢)، ويؤدي روي السين الساكن في البيتين السالفين أبعادا دلالية؛ إذ يوحي السكون بذلك القيد المحكوم في نظرات مختلسة يجود بها المحب على محبوبه، والخلسة تقتضي السرعة في الأداء أمانة من أعين الرقيب، غير أن فيها لذة؛ إذ تغدو كخطفة البرق في طوايا الغمام، سريعة عاجلة لكنها مؤثرة تاركة في النفس الأثر.

أما الصورة في البيتين فتتشكل من تلك المفارقة في التعبير عن الشعور بين المحب ومحبوبه، أحدهما ينفروا يدعي النفور والآخر يطلق في محبته العنان المرتبط برمز الفروسية (عنان الفرس) بما ينبض به من دلالات الإقدام والتضحية بلا قيد، فضلا عما يضيفه على المعنى الشعري من حركة دائمة تلازم الفرس المحب للإسراع والمغامرة؛ إذ " كان الأندلسي يتخذ صهوة جواده وسيلة للوصول إلى محبوبته وهو أمر محفوف بالمخاطر والأهوال"^(٣)، لكنه رغم مخاطره نابض بالبطولة.

وفيما يتعلق بالمقابلة بين شعورين فإن ذلك من شأنه أن يعمق البعد الجمالي في المعنى الشعري؛ إذ " يعد التقابل مصدر الجمال من خلال إثارة الانتباه إلى الفكرة، وإيقاظ الشعور بالموازنة بين الشيء وضده " ^(٤)، أو بين الشعور ونقيضه.

(١) طوق الحمامة، ص ٨٢

(٢) علي نكاح، جماليات التصريح في القصائد الأندلسية لأحمد شوقي، دراسة أسلوبية، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجلد ٥، العدد ١٢، ديسمبر ٢٠١٧م ٢ ص ٢٣٦

(٣) عمر فارس، صورة الخيل في الشعر الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، أطروحة ماجستير، جامعة مؤتة، ٢٠٠٦م، ص ١٧، ص ١٨

(٤) أحمد فليح حسن الخضري، الثنائيات الضدية في شعر ابن فركون الأندلسي، مجلة آداب الكوفة، العدد ٥٢، الجزء ٢، ٢٠٢٢م ص ٢٠٥

وأما القول بأن دوام الوصل يودي بالحب فإن ابن حزم يقول في ذلك "ومن الناس من يقول إن دوام الوصل يودي بالحب وهذا هجين من القول إنما ذلك لأهل الملل، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالاً"^(١)، وفي هذه المعاني تأتي النفثة الشعورية الآتية:
وددتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بمديّةٍ وأدخلتِ فيه ثمَّ أُطبقَ في صَدْرِي

فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى مُنقضى يوم القيامة والحشرِ

تعيشين فيه ما حييتُ فإنْ أُمْتُ سكنتِ شغافَ القلبِ في ظلمة القبرِ^(٢)

تنبض الأبيات السالفة بإيحاء نفسي يعكس جانباً غريباً من نفسية المحب وحبّه للتملك، وبتأمل لشعر الحب في الطوق نجده " طاقة زهر أريجِه من الأقاصيص ومقطعات الشعر والتحليل النفسي والخلقي للحب"^(٣) لكن النفثة السالفة تقدم نمطاً مختلفاً من أنماط الحب وهو حب التملك، وفيه يود المحب لو يستأثر بمحبوبه أبداً، وفي الصورة نمط فريد من التشكيل للمعجم الشعري؛ إذ يعتمد تشكيل الصورة ههنا على التخيل باعتباره مصدراً خصباً من مصادر التشكيل؛ فكأنه يريد وصلها من المهد إلى اللحد، فالصورة الأولى ترتكز في البيت الأول وتنم دلالة الفعل (أطبق) عن إحكام التملك داخل النفس، والتعبير بقوله (إلى مُنقضى يوم القيامة والحشر) يوحي بالرغبة الدائمة في وصل أبدي، وفي البيت الثالث يكون الشاعر قد بلغ مبلغ الشطط - في تصوري - إذ يرجو أن تلازمه محبوبته بعد موته وتشاركه ظلمة القبور، وهو برأيه نوع من التملك والأناية في الحب؛ فالمحب الحق لا يقبر محبوبه، بل يفتح له آفاقاً من المحبة والنور، فإن عانى فلا يحكم عليه أن يتجرع من كأس معاناته، ولو توقف ابن حزم في نسج صورته عند دلالة البيت الثاني لكان أكثر توفيقاً من الناحية الفنية.

(١) طوق الحمامة، السابق، نفسه، ص ٨٣

(٢) السابق، ص ٨٤

(٣) إميليو غرسيه غومس، الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، عربي عن الإسبانية، د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٥٢م، ص ١٧

ومن أنماط الوصل لدى ابن حزم الوصل الخفي الذي لا يحيط به علما عاذل ولا رقيب، وقد أسماه ابن حزم بالوصل المختلس فقال: " وإن للوصل المختلس الذي يخاتل به الرقباء ويتحفظ به من الحُصَر، مثل الضحك المستور والنحنحة، وجَوْلان الأيدي، والضغط بالأجناب، والقرص باليد والرجل، لموقعا من النفس شهيا" ^(١)، ولعل ما يكسب هذا النوع من الوصل اللذة هو ذلك التواري عن الأعين، فتصفو المشاعر من كدر الأغراب، وفي هذا المعنى نظم الشاعر البيتين الآتين:

إِنَّ للوصلِ الخفيِّ مَحَلًّا ليسَ للوصلِ المكينِ الجليِّ ^(٢)

لَذَّةُ أمرُها بارتقَاب كَمَسِيرٍ في خِلالِ النَّقيِّ

فبين النفي والإثبات تشطر الدلالة في البيت الأول لتتوزع بين دلالة الضدين (المعلوم والمجهول، الجلي، والخفي) ثم يزداد المعنى وضوحا بدلالة التشبيه المجسدة للشعور في البيت الثاني، ويزيد هذا الوصل لذة حين يربطه ابن حزم بخلال النقوى، فاختلاس المشاعر لا يصاحبه معصية، إذ يزداد الحب طهرا بتلك البنيتين (الخفي، النقي)، إذ قد يستدعي حال بعض الحبين الربط بين إخفاء الوصل والمعصية فينفي ذلك ابن حزم ليجعل الوصل ههنا مشروط بخلال التقى، وهو معنى يرسخه دائما في كتابه هذا.

والوصل وإن كان مستعذبا في شتى صوره وأنواعه لا يخلو من تنغيص بعض هجر بين فينة وأخرى، وقد عد ابن حزم الهجر من آفات الحب؛ لما يحدثه في قلوب المتحابين من جفوة ولو ظاهرة رغم وجود اشتياق باطني يحاول كل منهما كتمانها، فالهجر لا يعني بالضرورة نضوب فيوض الحب بالقلب بل قد يكون دليلا على محبة تضرب بجذورها في أعماق الشعور، فليس كل حضور ينافيه غياب وليس كل وصل يضاده هجر "فقد تكون الأضداد دافعة للتوازن والتكامل" ^(٣)، فتستبين حقيقة الشاعر.

(١) السابق، ص ٨٦

(٢) السابق، نفسه

(٣) انظر: بدر بن علي العبد القادر، بنية الثنائيات الضدية وصيغها في نصوص تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بغيرها، دراسة لسانية تحليلية، مجلة كلية التربية في العلوم الإنسانية والأدبية، المجلد ٢٦، العدد ٤، ٢٠٢٠م، ص ٥٩

والهجريا اعتبره آفة من آفات الحب يأتي على ضروب عدة منها ما ذكره ابن حزم بقوله: "هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر" ^(١)، ويكون دافعه الحرص على المحبوب، ويصارع المحب فيه مشاعر متناقضة يحاول إخفائها "فتراه حينئذ منحرفا كمقبل وساكنا كناطق وناظرا إلى جهة نفسه في غيرها، والحاذق الفطن إذا كشف بوهمه عن باطن حديثها علم أن الخفي غير البادي" ^(٢)، وإذا كانت الأضداد عبر المستوى المادي تلتفت النفس المتأملة فإنها على المستوى النفسي لا يستشعر مداها إلا من كابدها، وفي الدفقة الشعورية الآتية تتأمل العديد من المشاعر المتناقضة رغم اتساقها:

وَمَا أَنَا مِمَّنْ تُطْبِئُهُ بِشَاشَةً وَلَا يَقْتَضِي مَا فِي ضَمِيرِي التَّجَنُّبُ ^(٣)

أزِيدُ نَفَارًا عِنْدَ ذَلِكَ بَاطِنًا وَفِي ظَاهِرِي أَهْلٌ وَسَهْلٌ وَمَرْحَبٌ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الْحَرْبَ يعلُو اشْتِعَالُهَا وَمَبْدُؤُهَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مَلْعَبٌ

وَالْحَيَةِ الرَّقْشَاءُ وَشَيِّ وَلَوْ نُهَا عَجِيبٌ وَتَحْتَ الْوَشْيِ سُمْ مُرْكَبٌ

فَقَدْ يَضَعُ الْإِنْسَانُ فِي التُّرْبِ وَجْهَهُ لِيَأْتِيَ غَدًا وَهُوَ الْمَصُونُ الْمُقَرَّبُ

فَذُلُّ يَسُوقُ الْعِزَّ مَنْ لَا يَذِلُّهَا وَلَا التَّدْ طَعَمَ الرُّوحِ مَنْ لَيْسَ يَنْصَبُ

وَرَوْدَكَ بَعْدَ الْمَاءِ مَنْ بَعْدَ ظَمَأَةٍ أَلَدُّ مِنَ الْعِلِّ الْمَكِينِ وَأَعْدَبُ

(١) طوق الحمامة، السابق، ص ٨٩

(٢) السابق، نفسه

(٣) السابق، ص ٩٠

حين نتأمل الموجة السالفة نلمح ذلك الحس التأملي فيها؛ إذ ينطلق الشاعر من دائرة الذات إلى الموضوع، ويخلع من مشاعره حيال الهجر ليطلع بصمته على الوجود بأسره ويتأمل ماهية ذلك التناقض الذي قد يزيد العالم جمالا لا قبحا؛ فيعمد الشاعر لبعض التشبيهات ليعقد في نفس المتلقي إحاسا متشابها لتلك الصور الحسية والمعنوية التي يضج بها الوجود؛ فقد يجل الحضور من بعد الغياب، ويحلو اللقاء من بعد الجفاء وتطيب الألفة من بعد الجفوة؛ فالتجنب في نفس الشاعر باطنه تودد، والإعراض باطنه إقبال. وفي ظلال هذه المفارقات بين الظاهر والخفي ينتقي الشاعر صورة " الحية الرقشاء " ليعمق الفكرة في وجدان المتلقي ويقرب المعنى:

وللحية الرقشاء وشي ولونها عَجِيبٌ وتحتِ الوشي سُمٌّ مُرْكَبٌ

فقد حوّل ابن حزم ببراعة فنية تلك الصورة التي يمتزج فيه المتناقضات بين دالين ممتزجين " الحية " بما تمثله من مشاعر الخطر والخوف، والوصف المزركش الجاذب في " الرقشاء " لتتكشف المعاني في الشطر الثاني؛ إذ خلف الجمال المزركش " سُمٌّ مُرْكَبٌ " عميق الأثر شديد السمية، ليعقد في وجدان المتلقي صورة تؤصل لقيمة المشاعر الباطنة. ويتبع الشاعر في موجته السالفة بعض الاستدلالات المنطقية المؤكدة لمآلات الأمور؛ إذ قد تعمق المشاعر وتصفو بعد زمن، وكذا الكثير من الأمور في حياتنا الدنيا قد تبدو هادئة ثم تزداد اشتعالا أو توهجا، ولولا الأضداد ما تجلّت الدلالة، ولولا الظمأ ما استشعر المرء الرّي ولولا البين ما زادت روعة الوصل، فالعبرة بالمآلات دائما. ومن أنماط الهجر لدى ابن حزم ما قال فيه: " وهجر يوجب التذلل وهو ألدُّ من كثير الوصال ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه واستحكام البصيرة في صحة عقدة، فحينئذ يظهر المحبوب هجرانا ليرى صبر مُحبه" ^(١)، وهذا النمط من الهجر لا يحسن مع محب ملول متقلب الود، فمثل هذا لا يثبت أمام عواصف الحب واختبارات الحياة.

(١) السابق، ص ٩٢

ومن أنماط الهجريين المتحابين كذلك هجر العتاب وفيه قال ابن حزم: "ثم هجر يوجيه العتاب لذنب يقع من المحب وهذا فيه بعض الشدة لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل مامضى؛ فإن لرضا المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة "؛ فما أجمل الري من بعد الظمأ، وفي هذا المعنى نظم ابن حزم البيتين الآتين^(١) :

دُعْ عَنْكَ نَقْصَ مَوَدَّتِي مُتَعَمِّداً واعقُدْ حَبَالاً وَصَالِناً يَاطْظَالُمُ

ولترجعنْ أَرَدْتُهُ أَوْ لَمْ تُرِدْ كَرِهَآ لِمَا قَالَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ

ويرى ابن حزم أن هذا النمط من الهجر تحصل به اللذة إن كان لطيفاً قليلاً، " وأما إذا تفاقم فهو فال غير محمود"^(٢)، وفي ذلك نسج الأبيات الآتية^(٣):

لَعَلَّكَ بَعْدَ عَتَبِكَ أَنْ تَجُودَا بِمَا مِنْهُ عَتَبَتْ وَأَنْ تَزِيدَا

فَكَمْ يَوْمٍ رَأَيْنَا فِيهِ صَحْوَاً وَأُسْمَعْنَا بـآخِرِهِ الرَعْوَا

وَعَادَ الصَّحْوُ بَعْدُ كَمَا عَلِمْنَا وَأَنْتَ كَذَلِكَ نَرْجُو أَنْ تَعُودَا

ومن أنماط الهجر لدى ابن حزم الهجر للملل، وفيه يهجر المحب محبوبه إذا هيمنت عليه الملالة، وهذا النمط من المحبة لا يستحسنه ابن حزم فيقول: " فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته على أي وجه كان ألا يستفرغ عامة جهده في محبته، وأن يقيم اليأس من دوامه خصماً لنفسه " فإذا لاحت له مخايل الملل قاطعة أياماً حتى ينشط بآله ويبعد به عنه، ثم يعاوده فربما دامت المودة "^(٤)، فابن حزم ههنا يوجه نصحه للمحبيب ويقول في هذا المحب^(٥):

(١) السابق، ص ٩٤

(٢) السابق، نفسه

(٣) السابق، نفسه

(٤) السابق، ص ٩٥

(٥) السابق، ص ٩٦

لا تَرْجُوَنَّ مَلًّا وَلَا لَيْسَ الْمَلُّ وَلَ بَعْدَهُ

حُبُّ الْمَلِّ وَلَ فَدَعُهُ غَارِيَّةٌ مُسْتَرْذَةُ

ومن الهجر الذي أورده ابن حزم هجر يوجبه جفاء المحبوب، وإعراضه، وفي هذا تأتي الأبيات الآتية:

هَجَرْتُ مَنْ أَهْوَى لَا عَنْ قَلِي يَا عَجَبًا لِلْعَاشِقِ الْهَاجِرِ

لَكِنْ عَيْنِي لَمْ تُطِقْ نَظْرَةً إِلَى مُحِيَّا الرِّشَاءِ الْغَادِرِ

وَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ فِي دِينِهِ تَقِيَّةَ الْمَأْسُورِ لِلْأَسِيرِ

وَقَدْ أَحَلَّ الْكُفْرَ خَوْفَ الرَّدَى حَتَّى تَرَى الْمُؤْمِنَ كَالْكَافِرِ

في الأبيات السالفة يحاول ابن حزم أن يفلسف أسباب هذا النوع من الهجر، مدفوعاً بالتفكير المنطقي لا العاطفي، ويبدو في لغويات النص لغة الفقيه، حيث استخدم ألفاظ الحل والإباحة (أباح)، و(أحل)، و(تقيّة)، وكأنه يُشرع هذا النوع من الهجر، ويبرر للمتلقي أسباب جوازه، حيث الغاية الأسمى تتمثل في الحفاظ على أمن النفس واستقرارها.

وبين الحضور والغياب تأتلق مشاعر الهجر والوصل، فما أجمل السقيا من بعد الظمأ، وفي هذا المعنى نظم ابن حزم البيتين الآتيين:

مَا أَقْبَحَ الْهَجْرَ بَعْدَ وَضَلٍ وَأَحْسَنَ الْوَصْلَ بَعْدَ هَجْرٍ

كَالْوَفْرِ تَحْوِيهِ بَعْدَ فَقْرٍ وَالْفَقْرِ يَأْتِيكَ بَعْدَ وَفْرِ

فالنفس بطبعها تُسرُّ بالعطاء من بعد قحط، وتشقى بالسلب من بعد العطاء، وكذا المحب تستعذب روحه الصلة من بعد هجر، وتتألم من هجر من بعد وصل، وتتقلب أحوال المتحابين دوماً بين شد وجذب وموجود ومفقود؛ لذا ينتقي ابن حزم هذا التشبيه ليربط دلالاته النفسية الخاصة بالمحبة بطبيعة النفس البشرية عامة، وبين الخاص والعام كثير صلة وتواشج في الإحساس.

ومن أنماط الهجر في الطوق: هجر من بعد وصل نادر، وفيه يغلب على الأمر الهجران؛ إذ يبدأ بهجر دائب تعقبه صلة عابرة أو حلم بوصل ثم يعود المتحابين للهجر الأول، وفي هذا النوع تكثر اللوعة - برأيي - إذ يكون فيه المحب قد تذوق لذة الوصال، وارتوى من سقيا المحبة وعبيرها؛ فتكون آثار الهجر أشد ألماً على روحه، وفي هذه المعاني تنبض الأبيات الآتية:

كانتُ إلى دَهري لي حاجةٌ مقرونةٌ في البُعدِ بالمشترى

فسأفها باللففِ حتَّى إذا كانتُ من القُربِ على مَحْجَرِ

أبعدها عني فعادت كأن لم تبد للعَيْنِ ولم تظهَرِ

إن الأبيات السالفة تجسد ذلك اللقاء العابر في صورة حدث نفسي يسير على هيئة أنصاف دوائر، ما إن يقارب الاكتمال حتى يعاود لنقطة الابتداء، وفي هذا التصوير دلالة خيبة الأمل التي وفق الشاعر في تصويرها بدلالات التشبيه المشربة بثنائيتي الظهور والاختفاء والري والظما والأمل والألم (كأن لم تبد ولم تظهر)، فتتفرط عناقيد الأمل في لقاء.

وفي نفس المعنى تنبض دلالات الموجة الشعورية الآتية:

دَنَا أَملي حتَّى مدَدْتُ لأخذه يدا فأنشَى نَحْوَ المَجْرة راحلا

فأصَبْتُ لا أرجو وقد كُنْتُ مُوقنا وأضحى مع الشعري وقد كان حاصلا

وقد كُنْتُ مَحْسُودًا فَأَصْبَحْتُ حَاسِدًا وَقَدْ كُنْتُ مَأْمُولًا فَأَصْبَحْتُ آمِلًا

كَذَا الدَّهْرِ فِي كَرَّاتِهِ وَانْتِقَالِهِ فَلَا يَأْمَنُ الدَّهْرُ مَنْ كَانَ عَاقِلًا

تنشطر الدلالة في الموجة السالفة بين دلالات الموجود والمفقود، وتتبدل الأحوال بين المحب ومحبوبة حيناً بين تقلبات الدهر؛ إذ يسري الدهر دوماً على حاله المعهود في تبديل الأحوال وتغيير الأشكال، وبهذا الحس التأملّي الشفيف يدرك ابن حزم هذه السنة الوجودية في التبدل؛ إذ المقبل يغدو مدبراً، والمأمول يمسي آملاً والمقيم يصبح راحلاً، فينتقل الشاعر دلاليّاً من تأمل أحوال المحبين لتأمل أحوال الحياة وما يوجبه الدهر في النفس من وجوب التسليم والإذعان فتهدأ النفس أمام هذه السنة الكونية في التغيير الدائب. وبالرغم من كون الحديث عن الحب يعد أمراً شعورياً في المقام الأول فإننا نجد ابن حزم في رسالته يسمو بمعانيها ليترقى بها روحياً وفكرياً، فلا يبقى نفسه في أسر العواطف غير المؤطرة بقيد أو شرط، وهذا منهج ابن حزم في كتابه؛ "فالفكر يعد المادة الأساسية في رسالة ابن حزم"^(١)، وبين الفكر والعاطفة تتسق المشاعر وتتمحصر المحاب.

ونلمح موازنة ابن حزم بين الأفكار والمعاني، "وهو جعل الضد إلى جنب ضده، واتباع المعنى بما يخالفه، أو الشخصية لما يقابلها، حتى تتضج المعاني، وتثبت الأفكار، كما اتضحت تلك الوحدة في مزاجته التعبيرية بين النثر والشعر، فجاء الشعر في عمومته متمماً للفكرة ومكملاً ومؤكداً لها"^(٢)، وهذا جعل من كتابه القيمة الأدبية التي أرادها ابن حزم لكتابات فخلدت أفكاره وتوارثت فلسفته.

(١) بلقسامي هاجر، قصري يوسف، ابن حزم الأندلسي وكتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، جامعة البويرة، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة والأدب العربي، ص ٣٩

(٢) إبراهيم حسن إبراهيم شحمة، الظواهر الأسلوبية في طوق الحمامة، دراسة في الخصائص والسمات، جامعة الأزهر، مجلة الدراية، المجلد ١٧، العدد ١٧، الجزء ٢، ٢٠١٧ م، ص ١٦٨

والنفس المتأملّة تجد الهجر ركنا ركينا في رحلة الأحباب طال أمده أو قصر؛ فازدحام الحياة يزيد هوة الهجر^(١)، ومن فلسفة بعض أنماط الهجر التي أوردها ابن حزم ما قال فيه: "ثم هجر القلى، وهنا ضلت الأساطير، ونفدت الحيل، وعظم البلاء، وهو الذى خلى العقول ذواهل، فمن ابتلي بهذه الداهية فليتصد لمحبوب محبوبه، وليتعمد ما يعرف أنه يستحسنه، ويجب أن يجتنب ما يدري أنه يكرهه، فربما عطفه ذلك عليهن إن كان المحبوب ممن يدري قدر الموافقة والرغبة فيه، وأما من لم يعلم قدر هذا فلا طمع في استصرافه بل حسناتك عنده ذنوب، فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمد السلوان"^(٢)، فابن حزم ههنا ينتهي به المطاف لنصح المحب بتعمد السلوان؛ إذ عقيدته تكمن في صلة مشروعة بين المتحابين، فلا يباح للمحب أن يعاني ما عاش من أجل محبة لا أفق لها ولا أمل لصلة مشروعة فيها.

وفي هذا النمط من الهجر يقول:

دُهِيتُ بَمَنْ لَوْ أَدْفَعُ الْمَوْتَ دُؤْوَهُ لَقَالَ إِذَا يَالَيْتِي فِي الْمَقَابِرِ^(٣)

وماذا على الشمسِ المُنيرة بالضحي إذا قُصِرَتْ عنها ضِعَافُ البصائر

وفي هذا النمط من الهجر أيضا ينبض الشاعر بخلجات فؤاده في الدفقة الشعورية الآتية:
معهودُ أخلاقِكَ قِسْمان والدهر فيك اليوم صِنْفان

فإنَّكَ النعمان فيما مَضَى وكان للنعمانِ يومان

يومٌ نعيمٍ فيه سعدُ الوَرَى ويومٌ بأساءٍ وغُـدوان

(١) انظر: صباح فارس أحمد الجحيشي، الهجر والوصل في شعر المرأة الأندلسية، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة الموصل، ٢٠١٩م، ص ١٠، وما بعدها

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، السابق، ص ٩٧

(٣) السابق، نفسه

فيوم نُعماك لغيري ويو مي منك ذو بؤس وهجران

أليس حُبِّي لك مُستاهلاً لأن تُجازيهِ بإحسان^(١)

تنشطر الدلالة في الموجة السالفة لشرطين، وتؤدي دلالة المثني ذلك الإيحاء الذي أراده الشاعر لموجته الشعرية؛ فبين المقابلة بين ما كان وما صار، تتجلى دلالات التضاد عبر مستوى الشعور والإحساس؛ فتكون النعماء لغير ذات الشاعر ويكون البأس حصاده المرير، وبين هذه المشاعر المتناقضة تنبثق دلالات الوصل والهجران لتتوزع الدلالات بين محب يبذل الكثير ولا يجنى حصاد محبته، ومحب يبذل القليل لكنه يحصد كل جميل من وصل ومشاعر إرواء للروح.

وتتجاذب الشاعر هذه الأحاسيس فيخلعها على بنية البيت الرابع في بنية (يومي)؛ ليوحي هذا التدوير بدلالاته الإيقاعية بمعاناة الشاعر وانشطار يومه وإحساسه على راحتي الإساءة والإحسان والنعماء والهجران، فتكتمل الرؤية؛ فالتدوير في النص الشعري يمنح الموجة الشعرية نوعاً من التدفق النغمي^(٢) ويتيح للشاعر أن ييثر مشاعره الوجدانية بطلاقة، فتندفق المشاعر.

ومن أبيات له تحمل دلالات الهجر أيضاً قوله:

أساعة توديعك أم ساعة الحشر وليلة بيني منك أم ليلة النشر

وهجرتك تغذيب الموحّد ينقضي ويرجو التلاقي أم عذاب ذوي الكفر^(٣)

إن وقع الهجر على وجدان الشاعر كوقع التعذيب على ذوي الكفر فابن حزم يركز ههنا على مثيرات الألم النفسي؛ إذ يستدعي البين والهجر في نفسه مثيرات الأسى جميعها،

(١) السابق، نفسه

(٢) انظر: حفيظة إسماعيل رمضان، التدوير في الشعر العربي أسبابه ودوافعه، جامعة الأزهر، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد ١٨، العدد ٢، ٢٠٢٢م، ص ٩٢٢

(٣) طوق الحمامة، ص ٩٨

فيرى هول الفراق كأهوال ساعة الحشرويستشعر لحظات البين كما لو أنها ليلة النشر، ولعلي أرى بعض المبالغة في التصوير ههنا من قبل ابن حزم؛ إذ لا يعقل أن يكون وقع الفراق على نفس المحب كوقع يوم الحشر أو ليلة النَّشْرِ.

وفي النفثة الآتية ينفث ابن حزم أريج الدعوات لتلك الأيام التي قد خلت:

سَقَى الله أَيَّاماً مَضَتْ ولياليا تُحاكي لنا النيلوفرَ الغَضِّ في النَّشْرِ

فأوراقه الأيام حُسناً وبهجة وأوسطه البدرُ المُقَصَّر للعمر

لهونا بها في غمرة وتآلفٍ تمرُّ فلا ندري وتأتي فلا ندري

فأعقبنا منه زمان كأنَّه ولا شكَّ حُسن العقدِ أعقبَ بالغدر^(١)

فالموجة السالفة موازنة دلالية ونفسية بين ما كان وما صار، يستهلها ابن حزم بالدعاء بالسقيا لجهود الوصل بين المتحابين، والموازنة ههنا تتجاوز المقارنة الظاهرة إلى المعاني الباطنية العميقة، ويبدو ذلك حين نتأمل بنية الأبيات المتواترة؛ فطلب السقيا بما تحمله من دلالات الوصل والإرواء والإشباع النفسي، واستحضار صورة شعرية للنبات الغض وما يضيفه على النص من دلالات الأمل والبهجة وحادثة ذلك الحب في القلب، ثم هذه النقلة الدلالية والنفسية التي تتبع هذه المشاعر الدافقة، فسرعان ما ينتقل ابن حزم في الشطر الثاني من البيت الثاني لهذا الوصف (البدر المُقَصَّر للعمر)، فيتحول البدر من مثير من مثيرات النور والأمل والإشراق بين جنبات النفس، لدال يرمز به الشاعر لانقضاء لذة الوصل، ثم يعود الشاعر لدائرة الأمل والذكرى الأولى فيستطرد في وصف المشاعر، حيث يمر الوقت على الأحبة بلا وعي بحركة الزمن من شدة تألفهما وامتزاج أرواحهما (في غمرة وتآلف).

لهونا بها في غمرة وتآلفٍ تمرُّ فلا ندري وتأتي فلا ندري

(١) السابق، نفسه

وتتحول الحالة الشعرية في ختام الموجة ليرسم الشاعر ملامح تحولات المشاعر بين أحاسيس موجودة وأخرى مفقودة من وفاء وغدر ووصل وهجر، وبين هذه المشاعر الممتزجة تتعمق الأفكار وتزداد وضوحا وتوهجا.

وهذه الموازنة بين المشاعر والأحاسيس والأفكار والعواطف من خصائص كتابات ابن حزم في الطوق، وهذا ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكي: " وأسلوب ابن حزم في الشعر كأسلوبه في النثر، يقوم على الموازنة بين الماضي والحاضر، غير أن الصور الأدبية في النثر أرق وأدق منها في الشعر، ربما لأنه في النثر كان حرا طليقاً، فلما حاول أن يأتي شعراً على ما قاله نثرًا وجد نفسه مقيداً بالمعاني والأفكار والصور التي أبدعها في هذا"^(١)، فلعله كان أكثر طلاقة في نثر الطوق من شعره.

ولعل هذه السمات اللغوية في الطوق تنبثق من شخصية ابن حزم التي نلمح فيها تلاقي الأضداد وازدواجية الصوت، وتجاور اللطف والخشونة والرقّة والعنف^(٢)، مما انعكس بالضرورة على لغة وأسلوب الطوق، ذلك أن " شعرية اللغة في طوق الحمامة لها سمات متنوعة، فحماليات الحب في هذا النص مفتوحة على مستويات متعددة، مما يمنحه التميز والثراء الدلالي والأسلوبي"^(٣)، وهذا بدوره أضفى هالة من التميز اللغوي في الكتاب.

والمأمل لما دونه ابن حزم في الوصل والهجر يجد أنه " لم يغرق في فلسفة الحب التجريدية، إنما اعتمد على الواقع والتجربة، وما شاهده واستقرأه من ظواهر سلوكية"^(٤)، فكل من أنماط الوصل والهجر تمثل أحوال العاشقين باختلاف بنيتهم النفسية التي حاول رسم ملامحها بأسلوبه في الطوق " الذي يعتمد -إلى حد كبير- على التجربة والملاحظة والتحليل النفسي واستخلاص النتائج"^(٥)، وهذا بدوره أثرى مؤلفه وأضفى عليه هالة من التميز في الفكر والرؤية.

(١) الطاهر أحمد مكي (دكتور)، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٧م، ص٢١٥

(٢) انظر: الطاهر أحمد مكي (دكتور)، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، مكتبة وهبة، ط٢، ١٩٧٧م، ص١٠٠

(٣) نزيهة بو صالح، بن سنوسي سعاد، شعرية اللغة في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، مجلة التعليمية، المجلد ١٣، العدد (٠١)، ٢٠٢٣م، ص ١٨ - بتصرف-

(٤) سعد عبد السلام، إشكالية الحب والجمال في الفكر الإسلامي، ابن حزم نموذجاً، جامعة الجزائر، معهد الفلسفة، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد ١٨، ٢٠١٣م، ص ١٧١

(٥) دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٣٩٥ أحمد هيك (دكتور)، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة،

الخاتمة وحصاد البحث:

- في ختام هذه الدراسة توصل البحث للنتائج الآتية:
- يعد كتاب طوق الحمامة طاقة زهر أريجها يفوح من نفسيات مختلفة للمتحابين.
 - قدم ابن حزم في الطوق نظرية متكاملة عن الحب والجمال؛ إذ اعتبر الحب مكملًا لنظرية الجمال عبر مستوى النفس والشعور.
 - اتسم أسلوب ابن حزم بالطرح العميق الذي ظهرت فيه الجوانب المتعددة من شخصيته، أدبياً وشاعراً وفيلسوفاً وفقياً ومتكلماً.
 - كان لتجربة الوصل والهجر بعداً جمالياً ودلالياً وفق ابن حزم في تصويره وتجسيده معانيه.
 - اعتمد ابن حزم أسلوب الموازنة بين الماضي والحاضر الفكر والشعور في كتاباته حول الوصل والهجر بين المتحابين.
 - جاءت شعرية اللغة في موضوع الوصل والهجر متسمة بسمات متنوعة مما منحها التميز والثراء الدلالي.
 - على مستوى المعاني الشعرية يركز ابن حزم في تجربة الوصل والهجر على المعاني الباطنية الأكثر عمقا في دلالتها الفنية والنفسية وهذا على عكس مذهبه الفقهي الظاهري.
 - نلمح تلاقي الأضداد وتعدد الأصوات في شعرية الوصل والهجر في طوق الحمامة بما يتناسب وأحوال المتحابين النفسية والفكرية.
 - قدم ابن حزم رؤيته في الوصل والهجر معتمداً على الملاحظة واستقراء أحوال المتحابين ومن ثم استخلاص النتائج والأنماط.
 - المتأمل لتجربة الوصل والهجر لابن حزم يجده لم يغرق في فلسفة الحب التجريدية؛ إذ جاء الوصل لديه مشروطاً بالوصل المباح في أطر العلاقات المشروعة، وهذا يرجع لفكره كفقيه له مذهبه الديني المعروف.
 - جاءت بعض الصور الشعرية لدى ابن حزم بها بعض المبالغات الفنية التي تعكس حب التملك وهو ما يتنافى مع طهر وسمو المشاعر التي أرسى لها نظرياً في كتابه.

- نلمح شيوع بعض الألفاظ ذات الدلالات الدينية في سياق تعبيره عن تجربة الوصل والهجر؛ كقوله ابتلي بهذ، وقوله: (فليتعمد السلوان) وترسيخه لمعاني مجاهدة النفس مالم يكن الوصول للمحبوب مشروعاً حلالاً.
- اقتصر ابن حزم على شعره في طوق الحمامة للاستدلال على الأنماط التي عرض لها.
- ظهور شخصية ابن حزم بشكل واضح في الطوق من خلال التحليل والاستنتاج والتأمل الفلسفي واستبطان المشاعر العميقة وتفسيرها للمتلقي.

المراجع:

- إبراهيم حسن إبراهيم شحمة، الظواهر الأسلوبية في طوق الحمامة، دراسة في الخصائص والسمات، جامعة الأزهر، مجلة الدراية، المجلد ١٧، العدد ١٧، الجزء ٢، ٢٠١٧ م
- ابن حزم، طوق الحمامة
- إحسان عباس، مقدمة رسائل ابن حزم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ط٢،
- أحمد فليح حسن الخصري، الثنائيات الضدية في شعر ابن فركون الأندلسي، مجلة آداب الكوفة، العدد ٥٢، الجزء ٢، ٢٠٢٢م
- الإمام علي بن حزم الأندلسي، المتوفى ٤٥٦ هجرياً، طوق الحمامة في الألفة والألاف، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤ م
- إميليو غرسيه غومس، الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، عربي عن الإسبانية، د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٩٥٢م
- بدر بن علي العبد القادر، بنية الثنائيات الضدية وصيغها في نصوص تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بغيرها، دراسة لسانية تحليلية، مجلة كلية التربية في العلوم الإنسانية والأدبية، المجلد ٢٦، العدد ٤، ٢٠٢٠م
- بسم عبد الوهاب الحوامدة، لطفي أحمد بابكر، الرؤية الفنية في كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية التربية، السودان، ٢٠١٨ م
- بلقسامي هاجر، قصري يوسف، ابن حزم الأندلسي وكتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، جامعة البويرة، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة والأدب العربي.
- الجامعة العراقية، كلية الآداب، مجلد ١٤، عدد ٢٠٢٤، ٣٥ م، منال عبد الحي إبراهيم، أنماط الوصل في غزل شعراء الطوائف والمرابطين

- حفيظة إسماعيل رمضان، التدوير في الشعر العربي أسبابه ودوافعه، جامعة الأزهر، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد ١٨، العدد ٢، ٢٠٢٢م
- خالد سريان ساري الحربي، سيميائية العنوان في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، جامعة الأزهر، حولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، المجلد السادس والعشرون، ٢٠٢٢م، الجزء الأول، إصدار ديسمبر
- دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٣٩٥ أحمد هيك (دكتور)، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة
- ريم زرويق، الصمت في أخبار العشاق: تجلياته، وظائفه، ودلالاته " طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي أنموذجا، أعمال الندوة الفكرية: الصمت في الخطاب، جمعية الدراسات الأدبية والحضارية بمدنين، تونس، ٢٠١٨م
- زكريا إبراهيم (دكتور)، ابن حزم الأندلسي، المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت، ص ٣
- سعد عبد السلام، إشكالية الحب والجمال في الفكر الإسلامي، ابن حزم نموذجا، جامعة الجزائر، معهد الفلسفة، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد ١٨، ٢٠١٣م
- صباح فارس أحمد الجحيشي، الهجر والوصل في شعر المرأة الأندلسية، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة الموصل، ٢٠١٩م، ص ١٠، وما بعدها
- الطاهر أحمد مكي (دكتور)، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، مكتبة وهبة، ط ٢، ١٩٧٧م
- الطاهر أحمد مكي (دكتور)، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، ط ٣، ١٩٨٧م
- عبد الكريم خليفة، ابن حزم الأندلسي، دار العربية للنشر، بيروت، د. ت

- عبدالله حسن محمد القرني (دكتور)، وظيفة خطاب المقدمات في كتب الحب العربي، (طوق الحمامة) و(مصارع العشاق) أنموذجا، جامعة ببشة، مجلة البحوث والدراسات العلمية، المجلد ١٧، عدد ١ (٢٠٢٣) م
- علي نكاع، جماليات التصريح في القصائد الأندلسية لأحمد شوقي، دراسة أسلوبية، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجلد ٥، العدد ١٢، ديسمبر ٢٠١٧م
- عمر فارس، صورة الخيل في الشعر الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، أطروحة ماجستير، جامعة مؤتة، ٢٠٠٦م
- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م
- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط٢٠١١، ١م
- منال رشاد حسين عبد الجواد، صورة المرأة بين طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي ومصارع العشاق لابن سراج القاريء "دراسة موازنة"، جامعة الفيوم، مجلة كلية الآداب، مجلد ١٤، عدد ١ (يناير) ٢٠٢٢م
- المنصف شعرانة، خطاب الحب في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، جامعة القيروان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، عدد ١٤، أكتوبر، ٢٠٢٢م
- نزيهة بو صالح، بن سنوسي سعاد، شعرية اللغة في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، مجلة التعليمية، المجلد ١٣، العدد (٠١)، ٢٠٢٣ م
- هلا عبد الحميد العلي، صورة المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، مجلة جامعة البعث، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مجلد ٤٢، عدد ١٦، ٢٠٢٠م